بكر بن حماد التاهرتي الجزائري

(٢٠٠ هـ - ٢٩٦ هـ)

دراسة في سيرته وشعره

د . فورار امحمد بن لخضر

جامعة بسكرة - الجزائر

بكر بن حماد التاهرتي الجزائري
(٢٠٠ هـ - ٢٩٦ هـ)
دراسة في سيرته وشعره

د . فورار امحمد بن لخضر
جامعة بسكرة – الجزائر

مقدمة تاريخية موجزة

بعد سقوط الخلافة الأموية في المشرق على أيدي العباسيين شهد المغرب العربي استقلالا عن الخلافة في المشرق ، وانقسما بين أقطاره الثلاثة ، فأسس إبراهيم بن الأغلب التميمي سنة ١٨٤هـ دولته التي دعيت باسمه ، وعاصمتها القيروان[١] ، ودامت سيادتها قوية إلى أن قضى عليها أبوعبيد الله الشيعي سنة ٢٩٦ هـ[٢].

وكان يجاور الأغالبة من الجهة الغربية بالمغرب الأوسط[٣] الدولة الرستمية التي تأسست سنة ١٤٤ هـ ، ومؤسسها عبد الرحمن بن رستم [٤] الذي اتخذ مدينة

---

(١) ينظر: ابن عذارى. البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب . تحقيق . ومراجعة ج . س . كولان و ليفي بروفنسال . دار الثقافة. بيروت . ط ٣ . ١٩٨٣ . ص ٩٥ ، مؤنس ، حسين . معالم تاريخ المغرب الإسلامي . دار الرشاد . القاهرة . ط ٧ . ٢٠٠٥ . ص ٩٦ ، ١٤٣ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) بكر بن حماد . الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي . تقديم وجمع وشرح محمد بن رمضان شاوش . المطية العلوية . مستغانم . الجزائر . ط ١ . ١٩٦٦ . ص

(٤) ابن عذارى . البيان المغرب . ١ : ١٩٦ .

تاهرت[1] عاصمة لملكه[2]، فكانت أول دولة إسلامية جزائرية مستقلة، ودامت نحو ١٥٢ سنة ، إلى أن سقطت على أيدي العبيديين سنة ٢٩٦ هـ[3].

كان رائد هذه الدولة الكتاب والسنة ، ونظامها الديمقراطية الحقة ، فالإمام ينتخب ، أو يختار مدى الحياة ، بعد توفر الكفاءة والنزاهة والمقدرة فيه، ومساعدوه مخلصون وأمناء في شؤون الإدارة والمالية[4].

أما لغة الدولة الرسمية فهي العربية ، إلا أن اللغة البربرية كان لها حضور كبير ، فهي لغة التخاطب ، وكثيرا ما كان يلجأ إليها العلماء لإلقاء دروسهم الفقهية والدينية . وعماد الدولة الخلق الحسن والعادات الراقية والعلم الغزير[5].

والدولة الرستمية كانت ملتزمة بحدودها ، لا تعتدي على جيرانها ، تفضل أن تأخذ بيد الشعب للوصول إلى ذرى الرقي والازدهار المادي والأدبي ، فشيدت القصور والمساجد والمنتزهات،

---

(١) الحميري، محمد عبد المنعم. الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق إحسان عباس. دار القلم للطباعة . لبنان . ١٩٧٥ . ص ١٢٦، بكر بن حماد . الدر الوقاد . ١٧ وما بعدها

(٢) ابن عذارى . البيان المغرب . ١ : ١٩٧ ، بونار ، رابح . المغرب العربي، تاريخه وثقافته. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر . ١٩٦٨ . ص ٣٣ – ٣٨ .

(٣) ابن عذارى . المصدر نفسه . ١ : ١٩٧ ، الحميري ، محمد عبد المنعم . الروض المعطار . ١٢٦ ، مؤنس ، حسين . معالم تاريخ المغرب الإسلامي . ١٢٠ .

(٤) الطمار ، محمد . تاريخ الأدب الجزائري . ٢٨ .

(٥) الطمار ، محمد . المرجع نفسه . ٢٨ ، مرتاض ، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم ، دراسة في الجذور . دار هومة للطباعة والنشر . الجزائر . ٢٠٠٥ . ص ٤٤ .

وقصد تاهرت أهل العلم وأرباب الصناعات والحرف من شتى الأقطار الإسلامية ، وازدهرت الفلاحة والصناعة والتجارة، فعم البلاد الاستقرار والأمن والرخاء[1]، ذلك أن رجال الدولة عرفوا بالتسامح ، ففسحوا المجال للمذاهب الإسلامية الأخرى دون تعصب أو تقيد لحرية الناس[2].

لقد نشطت الحركة الثقافية في عهد هذه الدولة نشاطا لم تعرفه من قبل وقد شارك فيها أهل القيروان بعلومهم وآدابهم ، حتى أصبحت تاهرت مركزا ثقافيا يضاهي قرطبة وبغداد إلى أن سميت بعراق المغرب[3]، وما يزيدها نشاطا تلك المكتبة المعروفة بالمعصومة ، فهي تزخر بالآلاف من المجلدات، وأمدت كل طالب علم بما يحتاج إليه من معرفة ، لكن هذا التراث الضخم أتى عليه الثائر العبيدي بالحرق والإتلاف ماعدا الكتب الخاصة بعلوم الأوائل كالطب والرياضيات[4].

ويعلق على هذا العمل المشين عبد المالك مرتاض بقوله : ((إن إحراق المعصومة وهي أول مكتبة عمومية أسست في الجزائر، على ذلك المستوى الثقافي من الازدهار والغنى ؛ سيظل وصمة عار عالقة بالعبيديين الذين لم يكن من حقهم قط إحراقها لأنها لم تكن مما يمتلكون ، فما أغراهم بها ؟ ولم كان التعصب السياسي ، والنزعة الأيديولوجية المشينة ، يبلغان بتلك الدول المتعاقبة ، هذا المبلغ المزري ؟ وكأني بتلك الفعلة الشنيعة وهي تضارع فعلة المتطرفين

---

(١) بونار ، رابح . المغرب العربي ، تاريخه وثقافته . ٤٢ – ٤٣ .
(٢) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٣٧ .
(٣) مرتاض ، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم ، دراسة في الجذور . ٦٢ .
(٤) ضيف ، شوقي . عصر الدول والإمارات (الجزائر – المغرب – موريتانيا – السودان) . دار المعارف . مصر . ط ١ . ص ٨١ .

الفرنسيين الحاقدين حين أحرقوا ، هم أيضا ، وبكل جهالة ودناءة ، وخسة وحقارة ، وتعصب وهمجية ، المكتبة الوطنية بالجزائر عام اثنين وستين وتسعمائة وألف حين أيقنوا بأنهم لا محالة ذاهبون من الجزائر ... فما أشبه اليوم بالبارحة ! وما أتفه الرؤية السياسية الضيقة: اليوم والبارحة !))[1].

راج الأدب والعلم في ظل هذه الدولة ، وظهر فيه أول جيل من الأدباء الجزائريين الحقيقيين، نظموا الشعر وأكثروا القول فيه ولكنه ظل يسير في اتجاه المدرسة المشرقية المحافظة .

ومنهم الإمام أفلح بن عبد الوهاب (١٨٨ هـ ٢٣٨ هـ) الذي نبغ في الأدب وقول الشعر ، وهو صاحب القصيد المشهورة في فضل العلم وأهله والتي مطلعها[2]:

العلم أبقى لأهل العلم آثارا ∴ يريك أشخاصهم زوجا وأبكارا
حتى إن مات ذو علم وذو ورع ∴ ما مات عبد قضى من ذاك أوتارا
وذو حياة على جهل و منقصة ∴ كميت قد ثوى في الرمس أعصارا
لله عصبة أهل العلم إن لهم ∴ فضلا على الناس غيابا وحضارا

وهي قصيدة طويلة في خمسة وأربعين بيتا كلها في تمجيد العلم والعلماء[3]، وله رسائل وخطب واضحة سهلة الأسلوب ، تساير العصر وتواكب ظروفه ، تتجلى فيها شخصية الرجل السياسي المحنك والناثر الحاذق والخطيب البليغ[4].

والإمام أبوبكر بن أفلح، الذي جره ولعه بالاشتغال بالأدب والعلم إلى إهمال شؤون الإمامة، بل وترك أمرها لأخيه أبي اليقظان محمد بن أفلح[5].

---

(١) مرتاض،عبدالمالك.الأدب الجزائري القديم،دراسة في الجذور٤٦ .
(٢) مرتاض ، عبد المالك . المرجع نفسه . ٢٤٥ – ٢٤٧ .
(٣) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٣٩ .
(٤) الطمار ، محمد . تاريخ الأدب الجزائري . ٣٠ .
(٥) بونار ، رابح . المغرب العربي ، تاريخه وثقافته . ٣٧ ، بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٣٩ .

وأما أبو سهل حفيد أفلح الذي قيل عنه كان يجيد البربرية ، ومن أكبر المؤلفين بها ، إضافة إلى إجادته للغة العربية ، مما مكنه من تولي خطة الترجمة بديوان الحكومة الرستمية[١].

في ظل هذه الدولة التي رعت العلم والعلماء وشهدت رفي الأدب وازدهاره ولد ونشأ بكر بن حماد .

حياة بكر بن حماد :

هو بكر بن حماد بن سهل (وقيل صالح ، وقيل سهر ، وقيل سمك) بن إسماعيل الزناتي التاهرتي، ويكنى بأبي عبد الرحمن[٢].

ولد بتاهرت سنة ٢٠٠ هـ، وكان من قبيلة زناتة البربرية الضخمة، ولا نعرف شيئا عن أسرته. ويبدو أن أباه لم يكن إباضيا ، ووجهه إلى العلم ((فتلقى دروسه الأولى على مشاهير علمائها وجلة فقهائها وكبار محدثيها))[٣]، وشغف بالشعر وتفتحت ملكته مبكرا[٤].

يرحل بكر بن حماد في سن السابعة عشر إلى بلاد المشرق ، فتوقف في القيروان ((وقرأ بها الفقه والحديث وبقية العلوم التي كانت تلقى آنذاك بمساجدها وبالخصوص على الشيخ عون بن يوسف الخزاعي والإمام سحنون بن سعيد التنوخي)) [٥].

لقد ضنت الأخبار في الزمن الذي استغرقه في القيروان ، وجلس فيه أمام شيخيه ، وقد ورد في رياض النفوس ، قوله :

---

(١) الطمار ، محمد . تاريخ الأدب الجزائري . ٣٢ .

(٢) نويهض ، عادل . معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر . مؤسسة نويهض للثقافية والتأليف والترجمة والنشر . بيروت . ط ٢ . ١٩٨٣ . ص ٥٨ ، بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٤٣ .

(٣) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٤٣ .

(٤) ابن عذارى . البيان المغرب . ١ : ١٥٤ .

(٥) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٤٤ .

((قال بكر بن حماد : لما فرغت من قراءة كتبي كلها على عون - وهي كتب ابن وهب[1]، قلت له : "يا أبا محمد كيف كان سماعك عن ابن وهب ؟ " فقال لي : " يا بني أقال أحد فينا شيئا ؟ "ثم قال : "والله ما أحب أن يعذب الله أحدا من أمة محمد ﷺ بسببي بالنار - أبطل الله سعيه وصومه وصلاته وسائر عمله إن كنت أخذتها من ابن وهب إلا قراءة - قرأت عليه أنا وقرأ علي ولو كانت إجازة لقلت : إنها إجازة ". وقد حضرت ابن وهب وأتاه رجل بكتبه في تلبس ، فقال له : " يا أبا محمد هذه كتبك " فقال له ابن وهب : "صححت وقابلت ؟ فقال نعم " فقال له : "اذهب فحدث بها فقد أجزتك لها ، فإني حضرت مالكا ، وقد فعل مثل ذلك)) [2].

نستخلص - مما تقدم - أن ابن حماد مكث في القيروان فترة قصير تقدر بحوالى سنة[3]، تلقى فيها علوم الفقه والحديث وبقية العلوم ، إلى أن أكمل قراءتها ، ثم رحل إلى المشرق ، حيث توقف بمصر قليلا ، ومنها اتجه إلى بغداد ، واتصل بالمعتصم[4] الخليفة

(١) هو أبو محمد عبد الله بن وهب القرشي من فقهاء المالكية وكبار محدثيهم ، ولد بالقاهرة سنة ١٩٧ هـ ، وتعلم بمكة والمدينة على يد الإمام مالك مدة عشرين سنة . من أشهر مؤلفاته : " الموطأ الكبير " و " الموطأ الصغير " والجامع الكبير " و " تفسير الموطأ " وكتاب " المناسك " وكتاب " سماعي عن مالك " و "المغازي " و"أهوال يوم القيامة " . انظر : بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٤٤ هامش ٣ .

(٢) المالكي ، أبو بكر . رياض النفوس . القاهرة . ١٩٥٨ . ج ١ ص ٢٥٩ .

(٣) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٤٥ .

(٤) هو أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد ، تولى الخلافة بعد أخيه المأمون من (٢١٨ هـ - ٢٢٧ هـ) . انظر : غربال، محمد شفيق . الموسوعة العربية الميسرة . دار الجيل

العباسي ((فمدحه ووصله بصلات جزيلة)) [1]، كما اجتمع[2] بالشاعر دعبل الخزاعي[3] الذي أكثر من هجاء خلفاء بني العباس ، وبخاصة هجاؤه لممدوح[4] ابن حماد في أول السنين الأولى من رحلته إلى المشرق من تاهرت .

وما يؤكد تلقيه العلم على يد شيخه عون مع حلوله الأول بالقيروان ، هو أنه عند عودته من المشرق لم يدرس بالقيروان لأنه عاد إليها وهو في نحو السبعين من عمره ، وفي هذه العودة المتأخرة من عمره ، اجتمع حوله الطلاب للتلقي على يديه[5].

ولعل الغاية من رحلته إلى المشرق تتجلى في جانبين :

الأول : في القرون الوسطى كانت ضالة المغربي تكمن في توجهه إلى المشرق ، وذلك قصد أدائه لفريضة الحج ، وتلك غاية كل المغاربة التي ينشدونها، وهذا لم تؤكده المصادر التي ترجمت لابن حماد.

وأما الثاني : فهو اغتراف العلوم من ينابيعها الأصيلة .

والجمعية المصرية لنشر الثقافة والمعرفة. ١٩٩٥ . المجلد الثاني. ص ١٧١٨ .

(١) ابن عذارى . البيان المغرب . ١ : ١٥٤ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو أبو جعفر الحسن بن علي الخزاعي (١٤٨ هـ - ٢٢٦ هـ) قضى دعبل أكثر حياته ببغداد ، وكان مشهورا بهجائه للخلفاء وتجاسره عليهم دون مبالاة . انظر : الإصفهاني ، أبو الفرج . الأغاني . تحقيق إبراهيم الأبياري. طبعة دار الشعب. القاهرة. ج ٢٢ ص ٧٧٧١ وما بعدها، ابن خلكان. وفيات الأعيان . تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٧٠ .

(٤) الإصفهاني . الأغاني . ٢٢ : ٧٨٠٣ - ٧٨٠٤ .

(٥) بكر بن حماد. الدر الوقاد. ٤٨ ، نبوي، عبد العزيز . محاضرات في الشعر المغربي القديم. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر . ١٩٨٣. ص ١٢٩ .

إذا ما يعرف عن ابن حماد أنه اتجه إلى العراق ، ليأخذ الحديث واللغة ، وأوغل في رحلته حتى البصرة والكوفة ، ثم استقر بدار الخلافة بغداد – كما تقدم – وفيها تتلمذ على يدي مسدد بن مسرهد وأخذ عنه مسنده في الحديث النبوي، وأبي الحسن البصري، وأبي حاتم السجستاني ، وأنه أخذ اللغة عن جلة من العلماء كابن الأعرابي ، والرياشي[1]، كما اجتمع بأدبائها وشعرائها ، وخصوصا دعبل الخزاعي – السالف الذكر – وعلي بن الجهم[2]، ولفت أبا تمام و غيره من شعرائها الكبار بمهارته في الشعر ، ففسحوا له في مجالسهم ، وكان ابن حماد الجزائري قد مدح المعتصم و أجزل له في العطاء – كما سبق – مما جعله يخاصم دعبلا ، و ربما خاصمه غضبا لخليفة المسلمين ، ونجده يحرض على عقابه والقصاص منه قائلا :

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ∴ ويمشي على الأرض العريضة دعبل
أما و الذي أرسى ثبيرا مكانه ∴ لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل
و لكن أمير المؤمنين بفضله ∴ يهم فيعفو أو يقول فيفعل[3]

و كأنه في الكلمة الأخيرة من أبياته يحرض المعتصم على الفتك بدعبل ، و يقال إن أبا تمام حين سمع منه هذه الأبيات ((عاتبه حبيب، وقال له: لقد قتلته، والله! يا بكر!)) [4]، وكأنما أعجبت ابن حماد كلمة أبي تمام –حبيب بن أوس– فألحق بالأبيات بيتين إشارة إلى كلمة أبي تمام ، قائلا:

وعاتبني فيه حبيب و قال لي ∴ لسانك محذور وسمك يقتل

---

(١) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٤٧ .
(٢) ابن عذارى . البيان المغرب . ١ : ١٥٤ .
(٣) ابن عذارى .المصدر نفسه . ١ : ١٥٤ ، بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٧٠ .
(٤) المصدر السابق.

وإني وإن صرفت في الشعر منطقي ∴ لأنصف فيما قلت فيه وأعدل[1]

وقد مكث ابن حماد طويلا في العراق ، ويضيف محمود علي مكي فيقول: ((ولسنا نعلم كم قضى بكر بن حماد في بلاد المشرق بين العراق ومصر، ولا متى عاد إلى بلاده على وجه التحديد، ويبدو أنه كان حريصا على الرجوع إلى وطنه على الرغم مما كان يستطيع أن يبلغه من المنزلة في البصرة أو في بغداد أو الفسطاط))[2].

عاد ابن حماد بعد غياب طويل إلى بلاد المغرب واستقر في القيروان، ولم يدرك شيخيه الكبيرين، وهما: سحنون صاحب المدونة في فقه مالك الذي كانت شهرته تدوي في المغرب ، والثاني محدث كبير هو عون بن يوسف الخزاعي وكان قد تتلمذ لعبد الله بن وهب المحدث المصري صاحب كتاب الجامع في الحديث، وعنه أخذه بكر بن حماد ، وقد أشرنا إلى ذلك .

بدأ ابن حماد الجزائري يعنى بعد وفاة شيخيه الكبيرين : عون وسحنون برواية مسند مسدّد ابن مسرهد ، وجامع ابن وهب و إملائهما على الطلاب في القيروان، وقد نال في دراسته للحديث النبوي شيئا من الشهرة في زمنه ، إذ يقال : قاسم بن أصبغ البياني[3]، رحل من الأندلس إلى المشرق ، ولقي بالقيروان شاعرنا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مكي ، محمود علي . بكر بن حماد التاهرتي . مجلة العربي . عدد ٥٣ . أفريل ١٩٦٣ . ص ٨١ .

(٣) قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف بن ناصح بن عطاء (٢٤٦ هـ - ٣٤٠ هـ) مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، من أهل قرطبة ، يكنى أبا محمد ، ويعرف بالبياني . سمع بقرطبة عن جلة علمائها ، ثم رحل إلى المشرق فسمع بمكة والعراق ومصر عن كثير من أئمة المسلمين ومشاهير الرواة ، وفي القيروان سمع من بكر بن حماد التاهرتي "مسند مسدّد " عنه .

ابن حماد ، سنة مائتين وأربع وسبعين[1]، ولعلها نفس السنة التي عاد فيها شاعرنا ، وسمع منه مسند مسدّد ، يورد المقري في هذا الشأن قول قاسم بن أصبغ ، حكاه القرطبي في تفسيره ، قال : ((لما رحلت إلى المشرق نزلت بالقيروان ، فأخذت عن بكر بن حماد حديث مسدد ، فقرأت عليه يوما فيه حديث النبي ﷺ " أنه قدم عليه قوم من مَضر مجتابي النمار" فقال : إنما مجتابي الثمار ، فقلت : إنما مجتابي النمار ، هكذا قرأته على كل من لقيته بالأندلس والعراق ، فقال لي : بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا ؟ أو نحو هذا ، ثم قال لي : قم بنا إلى ذلك الشيخ كان في المسجد ، فإن له بمثل هذا علما ، فقمنا إليه وسألناه عن ذلك ، فقال : إنما هي مجتابي النمار كما قلتُ ، وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم ، والنمار : جمع نَمِرَة ، فقال بكر بن حماد وأخذ بأنْفِه : رغم أنفي للحق ، وانصرف)) [2].

وقد وصف المقري هذه الحكاية بأنها داله على عظيم قدر الرجلين ، وما يؤكد أن الحافظ الأندلسي الكبير قاسم بن أصبغ ،

وعاد قاسم بن أصبغ إلى الأندلس" بصيرا بالحديث والرجال ، نبيلا في النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور في الأحكام " ، ومال أهل الأندلس إليه وسمع منه الخلقة عبد الرحمن الناصر لدين الله قبل الخلافة ، ثم سمع من بعده ولي عهده الحكم وإخوته . انظر ترجمته : ابن الفرضي . تاريخ علماء . الدار المصرية للتأليف والترجمة . ١٩٦٦ . ج ١ ص ٣٦٤ – ٣٦٧ ، ٣١١ ، الحميدي . جذوة في ذكر ولاة الأندلس . الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة. ١٩٦٦ . ص ٣٣٠ – ٣٣١ ، الضبي . بغية الملتمس . دار الكتاب العربي . ١٩٦٧ . ص ٤٤٧ – ٤٤٨ .

(١) المقري . نفح الطيب . تحقيق إحسان عباس . دار صادر . بيروت . ١٩٦٨. ج ٢ ص ٤٧ ، ٤٧ – ٤٨ .

(٢) المصدر السابق.

حضر دروس ابن حماد ، وأخذ عنه أحد الكتابين المذكورين آنفا "مسند مسدد"[1] أو هما معا .

و مع تدريس ابن حماد للحديث النبوي ، كان يمدح أمراء الأغالبة حكام القيروان، ويسبغون عليه بعض عطائهم ، ويروى أنه قصد يوما الأمير إبراهيم بن أحمد ابن الأغلب (٢٦١ هـ -٢٨٩هـ) في قصره حاملا إليه بعض مديحه حسب عادته ، فمنعه ((الفتى (بلاغ) خادم الأمير ، وقال له : الأمير عنا مشغول في هذا اليوم ، قال بكر : فالطف بي في إيصال رقعة إليه ، فقال : إنه مصطبح في جنان قصره مع الجواري ، ولا يصل إليه أحد، فارتجل بكر مقطوعا كتبه في رقعة ، واحتال (بلاغ) في إبلاغها مساعدة للشاعر ، وكان في الرقعة أبيات منها :

خلقن الغواني للرجال بلية ∴ فهن موالينا و نحن عبيدها
إذا ما أردنا السيد في غير حينه ∴ أتتنا به في كل حين خدودها

وكتب تحت الأبيات :

فإن تكن الوسائل أوعزتني ∴ فإن وسائلي ورد الخدود

وبلغت الرقعة إلى الأمير فلما قرأها دفعها إلى الجواري ، فأنشدنها وأظهرن سرورا بها وشغفن إليه أن أخرج إلى بكر بن حماد بصرة مختومة فيها مائة دينار))[2].

ويعلق محمود مكي على هذا الخبر بقوله : ((يدلنا هذا الخبر على أن بكرا عرف كيف يستفيد من تجاربه الماضية في بلاط العباسيين ، إذ نراه يستخدم وسائل هؤلاء الشعراء المتظرفين الذين كانوا يخلبون ألباب الأمراء بما أوتوا من قوة العارضة ولطف النادرة، حاصلين بذلك على ما يريدون))[3].

---

(١) الحميدي. جذوة المقتبس ٣٣٠ ، الضبي . بغية الملتمس . ٤٤٨ .
(٢) الطمار ، محمد . تاريخ الأدب الجزائري . ٣٣ - ٣٤ .
(٣) مكي،محمود علي.بكر بن حماد التاهرتي.مجلة العربي عدد٣٥ص ٨١.

هذا الخبر يدل على أن بكرا كان دائم الصلة بأمراء الأغالبة يمدحهم و يثيبونه على مديحه ، لكنه غادر القيروان سنة ٢٩٥هـ، ولعل السبب وشاية، وهو أنه لما سعي به إلى إبراهم بن أحمد الأغلبي ، خاف على نفسه ، وفر بصحبة ولده عبد الرحمن ، وفي طريقه إلى بلده اعترضه اللصوص وحاولوا سلبه ، فقاتلهم فغلبوه ، وقتلوا ولده ، وأصابوه بجروح مؤلمة مازال يعاني منها حتى مات سنة ٢٩٦ هـ[١].

والبعض لا يرجح هذا السبب بدليل أن إبراهيم بن الأغلب كان قد توفي سنة ٢٨٩ هـ ، والأمير الذي كان في سدة الحكم سنة ٢٩٥ هـ التي توجه فيها بكر نحو تاهرت ، هو الأمير زيادة الله الثالث[٢]، والبعض الآخر يرى أن السبب سياسي[٣]، و((قد تكون الحركة الشيعية التي ستظهر في السنة القادمة، وتجتاح دول المغرب العربي الواحدة تلو الأخرى، هي التي بدأت عملها البعيد ، خاصة ونحن نعلم أن للشيعة ثأرا عند بكر بن حماد في قضية تحريضه المعتصم على شاعرها دعبل)) [٤].

يستشف – مما تقدم – أن سبب الوشاية غير مقبول لتأخر الحادثة عن وفاة الأمير الأغلبي ، وأما السبب السياسي قد يكون مقبولا لمزامنة الحادثة مع حركة الشيعة ، ثم سقوط تاهرت في أيديهم قبيل وفاة شاعرنا بكر بن حماد إثر الجروح المؤلمة التي

(١) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٥٢ .
(٢) مكي ، محمود علي . بكر بن حماد التاهرتي . مجلة العربي . عدد ٥٣ . ص ٨٣.
(٣) بونار ، رابح . المغرب العربي ، تاريخه وثقافته . ١٢٢ .
(٤) السائحي ، محمد الأخضر عبد القادر . بكر بن حماد شاعر المغرب العربي في القرن ٣ هـ . طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية . الجزائر. ١٩٨٦ . ص ٨٦ .

أصيب بها ، وهي نفس السنة التي شهد فيها سقوط دولة بني رستم بتاهرت على يد أبي عبد الله الشيعي، ((وقتل ممن فيها من الرسمية عددا وبعث برؤوسهم إلى أخيه بالقيروان ونصبت على باب رقادة))[1]، وقد دام حكمهم فيها مئة وثلاثين سنة،ورثاها كما سنرى.

تشير بعض الدراسات أن بكر بن حماد كان يقيم بالقيروان حينا، وبتاهرت حينا آخر حسبما كان يقتضيه صفاء الجو السياسي وتعكره في كل من العاصمتين، وما يؤيد هذا القول مشاركته في الفتنة التي وقعت ضد أبي حاتم يوسف بن محمد بن أفلح (٢٨١هـ – ٢٩٤هـ)، وأدت إلى إخراجه من عاصمة ملكه ، واعتذر الشاعر إليه بعد رجوعه إليها[2] بهذه المقطوعة الرائية التي عارض فيها النواسي في خصيب مصر ، يقول[3]:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها ∴ وغصنُ شبابي في الغصون نضير
فقلت كما قال النواسي قبلها ∴ عزيز علينا أن نراك تسير
فقالتْ جفاني يوسف بن محمد ∴ فطال علي الليل و هو قصير
أبا حاتم ما كان مما كان بغضة ∴ ولكن أتت بعد الأمور أمور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم ∴ فدرايتهم و الدائرات تدور
وأكرم عفو يأثر الناس أمره ∴ إذا ما عفا الإنسان و هو قدير

ورضي الإمام أبو حاتم عن الشاعر، وعفا عنه لعلمه بأن الدئرات تدور، وأن بكرا غمرته الفتنة وغشيته الغاشية ، فلم يسئ إليه عن بغضه ، وإنما اقترف ذلك توددا للناقمين وتوقيا صدماتهم الموبقة . ولبث أبو حاتم يوسف في هذا الجو المضطرب ينظم شؤون دولته إلى قتله خصومه سنة ٢٩٤ هـ[4].

---

(١) الحميري . الروض المعطار . ١٢٦ ، ابن عذارى . البيان المغرب . ١ : ١٥٣ .
(٢) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٥٠ ، ٨٣ – ٨٤ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) بونار ، رابح . المغرب العربي ، تاريخه وثقافته . ١٢٤ .

شعر بكر بن حماد :

وديوان بكر بن حماد سقط من يد الزمن غير أن "محمد بن رمضان شاوش" استطاع أن يجمع طائفة كبيرة من أشعاره وهي تقدر واحدا ومائة بيت ، وذلك بعد استبعاد القصيدة التي قيلت في هجاء الخليفة المعتصم العباسي، إذ لا يصح أن يكون الخليفة ممدوح ابن حماد ، ويصير خصمه دونما سبب سياسي أو مذهبي ، وما يزيل الشك نهائيا، هو أن هذه القصيدة أوردها الإصفهاني باسم صاحبها دعبل الخزاعي[1]، وأعاد "السائحي" جمعه ، بعد أن أسقط القصيدة نفسها ولكن دون تعليق ، فعثر بعد بحث دقيق أن ثلاث أبيات في الغزل لم يدرجها " رمضان شاوش " في الدر الوقاد – وقد سبق ذكرها – فيقدر عدد الأبيات بمائة وسبعة ، موزعة على تسع عشرة قصيدة ومقطوعة ، وذلك بزيادة مقطوعة عن محمد بن رمضان شاوش .

وأما الباحث الجزائري "مرتاض " فإنه يثبت بيتين إلى أبيات اللامية[2] في رثاء عبد الرحمن، كما قادته تجربته الطويلة في البحث، ورهافة حسه أن يكتشف مقطوعة مجهولة القائل[3]، أوردها ابن عذارى[4]، فبعد دراسة سيميائية لها[5] أثبت أنها لابن حماد لوجود كثير من ملامح الشبه بينها وشعر الشاعر .

---

(١) الإصفهاني . الأغاني . ٢٢ : ٧٨٠٣ – ٧٨٠٤ .
(٢) مرتاض ، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم ، دراسة في الجذور . ٢٤٥ .
(٣) مرتاض ، عبد المالك . المرجع نفسه . ٢٤٣ .
(٤) ابن عذارى . البيان المغرب . ١ : ١٩٨ – ١٩٩ .
(٥) مرتاض ، عبد المالك .الأدب الجزائري القديم ،دراسة في الجذور. ١٠٩ – ١٣٧ .

بهذا البحث الدقيق والجهد الكبير من طرف الباحثين الجزائريين الثلاثة – حسب علمنا – يصل شعر ابن حماد إلى مائة وستة عشر بيتا ، موزعة على عشرين قصيدة ومقطوعة ، أكثرها ستة عشر بيتا وأقلها بيت واحد .

تتناول نتاج بكر بن حماد من أغرض الشعر العربي : المدح، والهجاء والتحريض والنقد، والوصف، والتأمل والاعتبار، والزهد والوعظ، والاعتذار، والرثاء، وقد وصل إلينا منه قصائد ومقطوعات وأبيات قليلة .

وأما الكثير من شعره فقد ضاع لأسباب عديدة يعدد رمضان شاوش منها :

١ – ولوع المغاربة برواية وحفظ إنتاج المشارقة ، وإهمال ما تنتج قرائح أبناء وطنهم لأن المشرق في نظرهم كان ولا يزال ينبوع العلم والدين واللغة والأدب .

٢ – إهمال المشارقة لإنتاج المغاربة ولو كان هذا الإنتاج ذا قيمة فنية،لأن المغرب كان في نظرهم موطن الجهل والأمية والرطانة.

٣ – إقامة شاعرنا بالمشرق تلك المدة الطويلة التي جعلت المغاربة يجهلونه والمشارقة يتجاهلونه، فلم يحفلوا بشعره ولا دونوه[١].

وأما الباحث "مرتاض" فإنه، بعد أن أشار إلى قدرة ابن حماد الشعرية، وما جادت به قريحته في المشرق، تعجب من انعدام أخباره هناك، يقول: ((وربما يعود خلو كتب الأدب من ذكره (يعني ابن حماد) إلى ما يمكن أن نطلق عليه تجاهل المشارقة للمغاربة، منذ القدم، وعدم عنايتهم بأخبارهم، والزهد في آثارهم، إلا ما اشتهر منها، أو اتصل أمرها بهم))[٢].

---

(١) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٥٤ .

(٢) مرتاض،عبدالمالك.الأدب الجزائري القديم،دراسة في الجذور ٧٢ .

إن عدم اكتراث المشارقة بأخبار المغاربة كانت قديمة – كما تقدم – ويضاف إلى ذلك العمل المشين المتمثل في حرق مكتبة المعصومة التي يذكر عن ((عبدالوهاب ابن عبد الرحمن الرستمي (١٧١ هـ – ٢٢١ هـ) ، أنه أرسل إلى بعض الإباضيين في البصرة بألف دينار ليشتروا له كتبا بها فاشتروا له كثيرا من الكتب وأرسلوها إليه على أربعين بعيرا كما يقول الباروني في الأزهار الرياضية . ومازال خلفاؤه يجمعون لتلك المكتبة ...حتى بلغت ثلاثمائة كتاب))[١]، ولو وصلنا هذا التراث المفقود ، ومنه شعر بن حماد ، لاكتملت الصورة ، ولا يسعنا إلا أن نذكر قول رمضان شاوش : ((لكن قلة ما بأيدينا من شعر بكر بن حماد لا يبرر إصدار حكم نهائي في شانه إذ المستقبل كشاف)) [٢].

ومع عدم رواية شعر ابن حماد، والاستهانة بقيمته ، وضياع الكثير منه بعدم تدوينه ، أو تعرضه للحرق ، فها هي بعض النماذج من شعره :

المدح :

لقد مدح بكر بن حماد الخليفة المعتصم العباسي ــ كما تقدم ــ ولم تصلنا مدائحه فيه ، ومدح الأمراء والأعيان في المغرب بأقطاره الثلاثة ، وما وصلنا منه قليل .

ومدحه على العموم يسير في اتجاه المدرسة المشرقية المحافظة ــ كما تقدم ــ فهو يشيد فيه بكرم الممدوح ونسبه وشجاعته، ومن ذلك مدحه أحمد بن سفيان أمير الزاب (ــ٢٦٠هـ)، يقول[٣]:

وقائلة زار الملوك فلم يفد ∴ فيا ليته زار ابن سفيان أحمدا

(١) ضيف، شوقي. عصر الدول والامارات (الجزائر...) ٨٠ – ٨١ .
(٢) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٥٧ ، ٧١ ، ٧٢ – ٧٣
(٣) المصدر السابق.

فتى يُسخط المالَ الذي هو ربه ∴ ويرضي العوالي والحسام المهندا

فهو يرى أن مثل هذا القائد الأعلى في النصر ، الذي حققه للدولة الأغلبية ، وهو عاملها على الزاب ، وبلائه الحسن في الفتح بصقيلية بقوة السلاح ، يرى أنه زاهد في المال الذي يجود به على كل قاصد بابه .

وفي هذه المقطوعة يوجه مدحه للأمير الإدريسي ، أحمد بن القاسم بن إدريس الثاني، حين كان أميرا على مدينة (كُرت) بالمغرب الأقصى ، واستدعى إليه الشاعر ، فيما يبدو ، وفيها يقول[1]:

إن السماحة والمروءة والندى ∴ جمعوا لا حمد من بني قاسم
وإذا تفاخرت القبائل وانتمت ∴ فافخر بفضل محمد و بفاطم
وبجعفر الطيار في درج العلا ∴ وعلي العضب الحسام الصارم
إني لمشتاق إليك وإنما ∴ يسمو العقاب إذا ما سما بقوادم
فابعث إلي بمركب أسمو به ∴ علي أكون عليك أول قادم
وأعلم بأنك لن تنال محبة ∴ إلا ببعض ملابس ودراهم

ففي هذه المقطوعة إشادة بالممدوح وكرمه ونسبه إلى الرسول ﷺ، وبفاطمة بنته، وجعفر بن أبي طالب بن عم الرسول (ﷺ)، وعلي بن أبي طالب ﷺ ، ويطلب منه أن يرسل إليه بعض ملابس ودراهم ومركبا يسمو إليه ، فلبى الأمير الإدريسي مطلبه وأناله مرغوبه .

الهجاء :

تناول بكر بن حماد موضوع الهجاء المشوب بالمدح ، فأجاد فيه وأصاب مكامن خصومه ، ولعل طبعه في الهجاء وما إليه ، كان أطوع منه في المديح وتعداد المحاسن ، وذكر له في الهجاء المقطوعة السالفة في دعبل التي يحرض فيها الخليفة المعتصم على الفتك به ، وكان عمران بن حطان الخارجي قد أشاد بشقي

(١) المصدر السابق .

الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادي، قاتل علي بن أبي طالب ، وفي طعنته له ، يقول[1]:

يا ضربة من تقيٍّ ما أراد بها .:. إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره حينا فأحسبه .:. أوفى البريّة عند الله ميزانا

وسمع - أو قرأ - البيتين بكر بن حماد السني فاستشاط غضبا وحمية للإمام علي بن أبي طالب ، و عارض البيتين بقصيدة هجا فيها ابن ملجم هجاء مريرا مع بيان ما للإمام علي من فضل عظيم في الإسلام ليبين مدى جناية ابن ملجم وما ارتكب من إثم شنيع ، وفيها يقول[2]:

قل لابن ملجم والأقدار غالبة .:. هدمت، ويلك ، للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم .:. وأول الناس إيمانا و إسلاما
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما .:. سنّ الرسول لنا شرعا و تبيانا
صهرُ النبي ومولاه وناصرُه .:. أضحت مناقبه نورا و برهانا
وكان منه - على رغم الحسود له .:. مكانَ هرون من موسى بن عمرانا
ذكرتُ قاتله والدمع منحدرٌ .:. فقلت سبحان ربّ الناس سبحانا
أشقى مُراد إذا عُدّت عشائرها .:. وأخسرُ الناس عند الله ميزانا
يا ضربةً من شقيٍّ أورثته لظى .:. مخلدا وأتى الرحمن غضبانا

وابن حماد يصور فضائل الإمام علي ليجسد جريمة ابن ملجم وفداحة ما اقترفه، إذ هدم ركنا ضخما من أركان الإسلام ؛ وكان علي أول الناس إيمانا وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكان صهره وسيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدين في جميع غزواته . ويشير إلى الحديث النبوي ((علي مني بمنزلة هرون من موسى)) ، وإنه ليذرف عليه الدمع مدرارا ، ويقول إن ابن ملجم أشقى قبيلته مُراد وأخسرُ البرية ميزانا عند ربه، ويا لها ضربة أو طعنة ستصليه

(١) المسعودي . مروج الذهب . دار الأندلس . بيروت . ١٩٦٥ . ج٢ ص ٤١٥ .
(٢) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٦٢ - ٦٦ ، ٦١ .

نار جهنم خالدا فيها مع غضب الله عليه غضبا شديدا. وواضح أنه هجاء مر ومقذع لسني ضد قاتل الإمام علي .

وصف الطبيعة :

وصف الطبيعة غرض مهم من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل إقليم ، فدائما الشعراء يتغنون بما تقع عليهم أبصارهم من مشاهد الطبيعة الصامتة: من الرياض والأزهار والجبال والأنهار والبحار، وما يروعهم من مشاهدها الحية المتحركة في الطير والحيوان الوحشي والأليف ، وابن حماد لم يصلنا مما قاله في هذا الموضوع إلا أبيات قليلة ، ومنه مقطوعته في الطبيعة الصامتة إذ يصف برد تاهرت ، موطنه الأصلي ، وما عان من بردها الشديد القاسي[1]:

ما أخشن البرد وريعانهُ ∴ وأطرف الشمس بتاهرتِ
تبدو من الغيم إذا ما بدتْ ∴ كأنما تنشر من تختِ
فنحن في بحر بلا لُجّة ∴ تجري بنا الريح على السَّمْتِ
نفرح بالشمس إذا ما بدت ∴ كفرحة اللّمي بالسبتِ

وهو يقول ما أشد خشونة البرد و صعوبته في تاهرت و ما أطرف طلوع الشمس بها إذ تبدو محجبة دائما من وراء الغيم و كأنما تنشر من وراء تخت أو ستر صفيق ، وإنا لنشعر لشدة البرد كأننا في بحر بلا لجة ، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودي بيوم السبت، يوم عيده الأسبوعي .

وقد ذكر الحميري تاهرت بأنها شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج حينما أورد أبيات ابن حماد هذه ، قائلا : ((ونظر رجلٌ من تاهرت إلى توقد الشمس بالحجاز فقال : احرقي ما شئت فو الله أنك في تاهرت لذليلة)) [2].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) الحميري . الروض المعطار . ١٢٦ .

الرثاء :

أجاد ابن حماد في الرثاء ، وتدفقت فيه عاطفته الحزينة المكلومة ، وهذه المقطوعة التي نظمها في فقده لابنه عبد الرحمن . وقد رثاه بمقطوعات كثيرة ، في قوله يخاطب نفسه ، وقد وقف على قبره[1]:

قف بالقبور فناد الهامدين بها ∴ من أعظم بليت فيها و أجساد
قوم تقطعت الأسباب بينهم ∴ من الوصال وصاروا تحت أطواد
كيف البقاء وهذا الموت يطلبنا ∴ هيهات هيهات يا بكر بن حماد
بينا ترى المرء في لهو و لعب ∴ حتى تراه على نعش وأعواد

وهو يقول قف بالقبور وناد بأعلى صوتك فلن يرد عليك أحد، فقد تقطعت أسباب الوصال بينك وبين من فيها ولا سميع ولا مجيب، ويقول كيف البقاء والموت يطلبنا في كل لحظة ، وبينما المرء لاد عنه في لهو وفي لعب، إذا هو محمول على نعش وأعواد وآلة حدباء تقذف به في مهاوي القبور، ويبكي ابنه طويلا بمثل قوله[2]:

بكيت على الأحبة إذ تولوا ∴ ولو أني هلكت بكوا عليا
فيا ولدي بقاؤك كان ذخرا ∴ وفقدك قد كوى الأكباد كيا
كفى حزنا بأني منك خلو ∴ وأنك ميت وبقيت حيا
و لم أك يائسا فينست لما ∴ رميت القرب فوقك من يديا

وهو يبكي أحبته وفلذة كبده بكاء حارا، وقد كان بقاء ابنه ذخرا لا يماثله ذخر له، وقد كوى فقده كبده كيا مؤلما أشد الألم ، ويقول إنه يكفيه حزنا أن مات ابنه وأنه عاش بعد يتلظى موجدة وحزنا، ولم يكن يعرف اليأس إلا حين فقده ، ورمت يداه التراب عليه فأظلمت الدنيا في عينيه ، فيعلق محمود مكي على ذلك بقوله : ((وشعر بكر في رثاء ابنه وتفكره في أمر الدنيا وزوالها من أجمل ما

(١) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٨٠ – ٨٣ ، ٨٧ .
(٢) المصدر السابق.

احتفظ لنا به إنتاجه الأدبي وأصدقه مع بساطة التعبير وجزالة الألفاظ والبعد عن التكلف))[1].

ولابن حماد مقطوعة حزينة يبكي بها تاهرت حين خرابها - كما تقدم، وقضي على الدولة الرستمية بها ، وفيها يقول[2]:

زرنا منازل قوم لم يزورونا ∴ إنا لفي غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم ∴ حلّ الرحيل فما يرجو المقيمونا
الموتُ أجحفَ بالدنيا فخربها ∴ وفعلُنا فعلُ قوم لا يموتونا
فالآن فابكوا فقد حقّ البكاء لكم ∴ فالحاملون لعرش الله يبكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا بأجمعها ∴ لو كان جُمّع فيها كنزُ قارونا

وهو يقول إننا زرنا منازل قوم في قبورهم قضى عليهم العبيديون، ولا نعرف ما يقاسون، ولو نطقوا لقالوا لنا تزودوا للآخرة فقد حل بالمقيمين الرحيل عما قليل ، وقد استأصل الموت أهل تاهرت وخربها ، ونحن لا نتعظ كأننا لا نموت ، والآن فابكوا فالحاملون لعرش الله يبكون عليكم ومن أجلكم ، وماذا ينفع الدنيا لو أن حكام تاهرت جمعوا فيها كنز قارون، فكل شيء فيها صار إلى فناء.

شعر التأمل والاعتبار:

كان ابن حماد يتأمل في الدنيا وأهلها وأحوالها ، ومن تأملاته نظراته إلى طبقات المجتمع المختلفة من حيث مكانتها و أموالها ، فهذا غني يتمتع بأطايب الحياة ويتقلب تحت ظلال النعيم، وهذا فقير يحيط يمينا وشمالا في طلب الرزق فيجد بعد الكد ما يسد به رمقه، أو يعود بحسرة كاوية، ذلك أن الأرزاق مقسومة، وأن الحرص لا يزيد الإنسان و لا ينقصه شيئا ، وكل ذلك قد أوحى إليه أن يقول[3]:

---

(١) مكي ، محمود علي . بكر بن حماد التاهرتي . مجلة العربي . عدد ٥٣ . ص ٨٤.
(٢) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٩٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ - ٧٩ .
(٣) المصدر السابق.

تبارك من ساس الأمور بعلمه ∴ وذل له أهل السماوات والأرض
ومن قسم الأرزاق بين عباده ∴ وفضل فيها بعض الناس على بعض
فمن ظن أن الحرص فيها يزيده ∴ فقولوا له يزداد في الطول و العرض

وينظر إلى الأيام والليالي فيراها تنقص من عمر الإنسان وتسوقه حيثما إلى حفرته الأخيرة ، وهو مع ذلك لا يهتم بهذه التحينات التي تنتابه ، ولا يتزود لحياته الأخيرة المجهولة ، وهو إذ يتأمل كل ذلك فيتعجب من غفلة الإنسان ثم يقول[1]:

نهار مشرق وظلام ليل ∴ ألحا بالبياض و بالسواد
هما هدما دعائم عمر نوح ∴ ولقمان و شداد و عاد
فيا بكر بن حماد تعجب ∴ لقوم سافروا من غير زاد
تبيت على فراشك مطمئنا ∴ كأنك قد أمنت من المعاد
فيا سبحان من أرسى الرواسي ∴ وأوقدها مع السبع الشداد

لقد أجاد ابن حماد شعر التأملات في الحياة وأحداثها، لأن البيئة التي عاش فيها، كانت بيئة فرق إباضية ومعتزلة وأهل سنة ، وأهل هذه الفرق كانوا يخوضون في أبحاث تتصل بالفلسفة الكلامية اتصالا وثيقا، ومنها مشكلة الخير والشر، والغنى والفقر، والسعادة والشقاء ، والقضاء والقدر، ومصير الإنسان، وغيرها .

نلاحظ في شعره هذا تكرار اسمه لعل ذلك ما يؤكد ثقته بنفسه ، فهو في هذه الموضوعات ينظر إلى الدنيا وأحوال الناس نظرة مفعمة بالحسرة والأسى .

شعر الزهد والوعظ :

برزت نزعه الزهد مع التابعين الذين استقروا بالقيروان ، وكان مجلس الإمام الشيخ سحنون بالقيروان يضم طائفة من الزهاد والعباد ، وكان يعطف عليهم ويكبر شأنهم ، واستمرت هذه النزعة في نمو مطّرد ، وكان ابن حماد وغيره من تلاميذ سحنون يميلون إلى هذه النزعة وينشئون فيها القصائد ، ويشدونها في المجالس

(١) المصدر السابق.

الدينية في القرن الثالث ويحاربون النزعة المادية التي يمثلها الأمراء و الأثرياء من الحكام .

ونزعة الزهد في شاعرنا ظهرت واضحة قوية ، ومقطوعاته فيه كثيرة ، وقد عكس بذلك بيئته الدينية وصور بشعره ما كان يحول في نفوس العباد والزهاد .

إن شاعرنا أجاد في هذا الموضوع إجادة ملحوظة و شعره نبع فياض لنفس زاهدة صادقة ، ومرآة صافية لروح متقية معرضة عن متاع الدنيا، ومتزودة بالعمل الصالح للحياة الأخرى ، وإن كان ذلك لا يمنع من ظهور الشاعر الراغب فيه (متاع الدنيا) ، الطالب لصلات أهلها تحت وطأة الحاجة ويدافع العيش ، وقد تقدم شيء من ذلك في المدح .

وقد رويت عن الشاعر في الزهد والوعظ مقطوعات تختلف طولا وقصرا ، وجوده وضعفا ، ومنها قصيدته القافية[1]:

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت ∴ وقد مرقت نفسي فطال مروقها
فيا أسفي من جُنح ليل يقودها ∴ وضوء نهار لا يزال يسوقها
إلى مشهد لا بد لي من شهوده ∴ ومن جُرَع للموت سوف أذوقها
سحاب المنايا كلَّ يوم مظلةٌ ∴ فقد هطلت حولي و لاحَ بُروقها
تهجّمت خمسا بعد سبعين حِجةً ∴ وهام غروبُ الشمس لي و طلوعها
وأيدي المنايا كلَّ يوم وليلة ∴ إذا اتّقت لا يستطاع رُتوقها
تُصبّح أقواما على حين غفلة ∴ ويأتيك في حين البيات طُروقها

وهو يقول إن نفسه جمحت منه وركبت هواها وعصته عصيانا شديدا، إذ لا تسمع إلى نصحه وإرشاده ، وكأنما زمامها بليل مظلم مما يؤسفه وإنها لا تتطلع إلى ضوء نهار مشرق يريها المشهد الحقيقي من الموت و جرعة وما سيتذوق منه ، وإن سحاب الموت ليظله ، و إنه ليهطل من حوله وتلمع بروقه ، وقد احتمل خمسا وسبعين حجة ، وطالما أشرقت عليه الشمس وغربت أيدي الموت

(١) المصدر السابق.

من حوله إذا فتقت فتقا لا يستطيع أحد رتقه ، وتصبِّح أقواما فجأة بمن تختطفه منهم وبالمثل تمسّيهم، وما أحرانا أن نعمل لآخرتنا قبل فوات الأوان .

ويستشف الدارس لشعر بكر بن حماد الزهدي ظاهرة عامة وهو التشاؤم المرير، وخيبة الأمل للإنسان الذي يريد أن ينال السعادة والخير في هذه الحياة ، فعليه أن يعكف على العبادة وعلى التزود منها بالزاد الصالح ليلاقي وجه ربه نقيا طاهرا ، وهذه الظاهرة تطبع عادة أكثر ما قيل في شعرد الزهدي .

ولعل الشاعر قد تأثر في زهدياته بأبي العتاهية و يبدو أنه قرأ له في رحلته إلى المشرق ودرس قصائدد الزهدية ولكننا نستطيع أن نقول بأن شاعرنا ذو طابع خاص به في الزهد لا نجده عند أبي العتاهية أو غيره . وهذا الطابع هو الزهد الوجداني الذاتي ، فقصانده التي نظمها في هذا الغرض حدثنا فيها عن نفسه ، وعبر فيها عن خوالجه ومشاعره ، فكانت قصائده لذلك صورة حية لمشاعره الزهدية وعواطفه الخلقية ، بخلاف قصائد أبي العتاهية التي أثقلها الأسلوب التقريري ، وأضعف قوتها العاطفية روح التفكير والتأمل ، فكانت دونها في التأثير ، وإن كانت أقوى منها في قوة الأسلوب ، وأدخل إلى البيان العربي الموروث[1].

ويعلق "محمد رمضان شاوش" على شعر ابن حماد ، وبخاصة الزهد والوعظ فيقول : ((نعم إن ابن حماد كان كابن العتاهية يغلب عليه الزهد والوعظ في أكثر ما بين أيدينا من شعرد الذي هو من الجودة بمكان مع وضوح المعنى ولطفه ورقته وانطباعه وقربه من أفهام الناس كما يمتاز كذلك بقلة التكلف

(١) بونار ، رابح . المغرب العربي تاريخه وثقافته . ١٣٣ .

وسهولة التعبير مع بساطة اللفظ وسلاسته بحيث ينقاد إلى فهمه الخاص والعام بدون كثير عناء))[1].

وأما "محمود مكي" فإنه أشار – كما تقدم – إلى صدق ابن حماد في رثائه وفي التأمل والاعتبار، وأعجب بتعدد مصادر ثقافته ، فهو لغوي ومحدث وفقيه وشاعر، وما يزيده إعجابا، قوله: ((والواقع أن هذا التعدد مما يزيدنا إعجابا بهذا الأديب الجزائري العالم ، فقد اعتدنا على أن يكون شعر المحدثين والفقهاء، ثقيلا جافا لا يفيض بهذه الحياة والحساسية اللتين تفيض بهما أبيات بكر))[2].

مما سبق من شعر بكر بن حماد، يتضح تعامله مع مختلف الأنظمة السياسية في المشرق والمغرب، بروح إسلامية عامة، وروح مغربية خاصة، بعيدا عن الانتماء المذهبي الضيق، فقد كانت مثله إسلامية ذات نهج سني عموما كأغلبة المسلمين مما جعله متفتحا على جميع المذاهب أو التيارات الإسلامية ، تعبيرا عن سعة أفقه الفكري في النظر إلى جميع أبناء الأمة الواحدة بعين الحب والود.

إن ابن حماد كان يقارن في الفحولة بشعراء المشرق في عصره ، وبخاصة مع دعبل الخزاعي السالف الذكر ، "ومحمود مكي" يعترف بمكانته ، فيقول : ((غير أننا نعرف قصة النزاع الذي نشب بين بكر ودعبل ، ولا شك في أن بكر بن حماد كان كبير الثقة بنفسه حينما تعرض لهذا الشاعر الذي عرف بشدة عارضته وذرابة لسانه ، لاسيما إذا قدرنا أن دعبل كان يكبر شاعرنا التاهرتي بخمسين سنة))[3].

---

(١) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٥٦ .

(٢) مكي ، محمود علي . بكر بن حماد التاهرتي . مجلة العربي . عدد ٥٣ . ص ٨٤.

(٣) مكي ، محمود علي . المرجع نفسه . عدد ٥٣ . ص ٨١ .

يتضح من هذا القول أن ابن حماد كان شاعرا فحلا منذ نعومة أظافره بدليل وقوفه أمام دعبل في هجاء الخلفاء العباسيين ومنهم الخليفة المعتصم ، بل وتحريضه عليه بالقتل- كما تقدم - ثم أقر النقاد القدماء هده الفحولة حينما التبس عليهم بيتين اثنين قيلا في هجاء الخليفة المعتصم؛ فمن قائل: إنهما لدعبل الخزاعي نفسه، ومن قائل : بل إنهما لابن حماد صنعهما على لسان على دعبل يؤذيه ويهاجيه[1].

ولا يدل هذا الالتباس في نسبة هذين البيتين إلى صاحبهما (ابن حماد أو دعبل الخزاعي) إلا على شيء واحد كما يوضح مرتاض: ((وهو أن بكر بن حماد كان من حيث مستوى الشعرية ، في درجة عالية تلامس درجة دعبل الخزاعي الطائر الذكر ، السائر الشعر))[2].

وهناك من يؤكد ضياع كثير من شعره - كما أشرنا سابقا - بدليل غياب التصريع ((وذلك راجع إلى ضياع بعض شعره وخاصة الأجزاء الأولى من القصائد حيث التصريع - من البيت الأول - الأمر الذي تشي به بعض مقطوعاته وقصائده ، من مثل اللامية التي رثى بها ابنه عبد الرحمن :

وهون وجدي أنني بك لاحق ∴ وأن بقائي في الحياة قليل

إذ يبدو أن هذا البيت عطف على قول سابق ، كما يبدو هذا الملمح في البيتين اللذين مدح بهما أحمد بن سفيان أمير الزاب))[3].

---

(١) ابن رشيق لمسيلي . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . دار الجيل . بيروت . ط ٥ . ١٩٨١. ج ١ ص ٧٢ .

(٢) مرتاض ، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم ، دراسة في الجذور . ٧٣ .

(٣) نبوي، عبد العزيز. محاضرات في الشعر المغربي القديم. ١٤١ .

وقد وثّق "مرتاض" بيتين آخرين لهذه الأبيات المبتورة المطلع ، ويؤيد رأي "تبوي" في مدح أمير الزاب بقوله: ((بيد أن أمر هذه المقطوعة ككثير من سواها لم يتجاوز بيتين اثنين ، وهو أمر مستحيل ، إذ لا يعقل أن يمدح شاعر مفلق مثل بكر بن حماد أميرا عربيا شهما مثل ابن سوادة التميمي، يطمع الشاعر في عطائه، ويتعشق الأمير الشعر الذي يتغنى بخلاله ... أفلا يكون مرد هذا الأمر إلى ضياع نص القصيدة... في الفتن والإحن والحروب والصروف، فلم يبق فيها إلا هذان البيتان اللذان لا يدلان في أنفسهما إلا على حادثة المدح، لا على المدح في نفسه؟))[1].

ورغم هذا الضياع المفرط لشعر ابن حماد الذي يرجع بعضه إلى الفتن والحروب وصروف الدهر ، وبعضه الآخر يرجع إلى إهمال الرواة وعزوفهم في روايته، وتجاهل المشارقة للمغاربة منذ القديم وعدم عنايتهم بأخبارهم والزهد في آثارهم – كما تقدم – وشاعرنا قضى جل عمره في المشرق بإقرار المترجمين له ، إلا أنه يعد ((استهلال مبكر في القرن الثالث الهجري لما ينتظر الجزائر في الشعر من مستقبل خصب)) [2] ، بل و "نويهض" يضعه ((من شعراء الطبقة الأولى في عصره)) [3].

والشاعر شأنه شان الشعراء الآخرين وقع في بعض الأخطاء اللغوية، وذلك لا يحط من نبوغ الشاعر المبكر في ذلك العصر ، القرن الثالث الهجري ، لا من قيمة شعره ، وهي :

---

(١) مرتاض ، عبد المالك . الأدب الجزائري القديم ، دراسة في الجذور . ٦٤ – ٦٥ .

(٢) ضيف، شوقي. عصر الدول والامارات (الجزائر ...) ١٦٢ .

(٣) نويهض ، عادل . معجم أعلام الجزائر . ٥٨ .

إعادة واو الجماعة على ما لا يعقل ، وترخيم فاطمة في غير النداء في البيتين[1]:

إن السماحة والمروءة والندى ∴ جمعوا لأحمد من بني القاسم
وإذا تفاخرت القبائل وانتمت ∴ فافخر بفضل محمد وبفاطم

وبعد : يحق لمؤرخ الأدب أن يقر بأن ظهور بكر بن حماد الجزائري في القرن الثالث الهجري والذي غلب عليه لقب "الشاعر"، أي بعد الفتح الإسلامي بقليل ، وهي فترة لا تكفي لظهور نابغين في الشعر ، هي مفخرة للأدب المغربي ، وناصع دليل على سمو عقليات أهله وآبائه .

(١) بكر بن حماد . الدر الوقاد . ٧٢ .